جامعة بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

المادة السرديات

التخصص: نقد أدبي حديث ومعاصر

المستوى: ثانية ماستر

المحاضرة الثالثة:

بنية الخطاب السردي(2- مكون الزمن في السرد)

تمهيد(حول أهمية عنصر الزمن في السرد)

يكتسي الزمن أهمية بالغة في حياة الإنسان فهو محور الوجود و روحه الحقيقية و هو «متأصل في خبرتنا اليومية والحياتية، فالحياة زمن، والزمن حياة»[1]. والزمن ليس عنصرا غريبا على الإنسان وإنما هو بعد أساسي لحياته التي تعد تطورا، وما التطور إلا زمن.

أما في الإبداع الأدبي فإن الزمن يكتسي أهمية خاصة و «لا بد للعمل الفني من بينية زمانية تعبر عن حركته الباطنية ومدلوله الروحي بوصفه عملا إنسانيا حيا»[2] وبقدر ما يختبر الأديب الحياة يزيد وعيه بالزمن و يتجلى ذلك في إنتاجه الإبداعي الذي طالما يحدد رؤيته للزمن وموقفه منه. فا «لشعر مثلا ما هو إلا محاولة للتعبير عن لحظات من الزمن النفسي أو الديمومة الشعورية أو هو محاولة لالتقاط إيقاعه من إيقاعات ديمومة الحياة من خلال

---

(1) مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 12.

(2) عبد اللطيف الصديقي: الزمان أبعاده و بنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 143.

تجربة ذاتية أو زمانية نفسية كما أن الموسيقى تعبر عن ألحان إذا عشناها لوجداننا نسينا زماننا و نسينا مكاننا»[3].

«و من ثم فإن المعالجة الأدبية للزمن ترتكز ارتكازا كليا على الزمن النفسي البرغسوني (Bergson)، حيث يكون الزمن حينئذ معطى مباشرا من معطيات الوجدان و يقترن بالحالات الشعورية و النفسية في النص الأدبي»[4].

وبالنسبة للزمن الروائي فإنه يمثل محور الرواية و عمودها الأساسي مثلما هو محور الحياة «فا إذا كان الأدب يعتبر فنا زمنيا إذا صنفنا الفنون إلى زمانية ومكانية، فإذا القص هو أكثر الأنواع الأدبية التصاقا بالزمن»[5].

وبما أن الرواية تعد أكثر الفنون الأدبية ارتباطا بالواقع وبالحياة فإنها أيضا أكثرها اهتماما بعنصر الزمن بل إنما«تعبير عن رؤية الروائي تجاه الكون والحياة و الإنسان، فإحساس الإنسان بإيقاع الزمن يختلف من عصر إلى عصر تبعا لاختلاف إيقاع الحياة نفسها»[6].

لكن المقصود بزمن الرواية ليس زمنها الخارجي الذي تصدر فيه أو حتى تعبر عنه فحسب و إنما المقصود به «زمنها المتخيل الخاص، أي بنيتها الزمنية التي تحدد بإيقاع و مساحة حركتها و الاتجاهات المختلفة، أو المتداخلة لهذه الحركة، كما تشكل بملامح أحداثها،

---

(3) المرجع نفسه، ص 144.

(4) مراد عبد الرحمن مبروك: بناء الزمن في الرواية المعاصـــرة رواية تيار الوعي نموذجا (1967- 1994)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 08.

(5) عثمان بدري: بناء الشـخصـية الرئيسـة في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة و النشـر و التوزيع، بيروت، لبنان، ص 115.

(6) مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية، المرجع السابق، ص 38.

و طبيعة شخصياتها، و منطق العلاقات و القيم داخلها، و نسيج سردها اللغوي ثم أخيرا بدلالاتها النابعة من تسابك و تضافر و وحدة هذه العناصر جميعا»[7].

إذا كان المكان الروائي مثلما أشرنا في بداية البحث لا يمكن عزله عن باقي عناصر الرواية لأنه يدخل في علاقات متنوعة مع مكوناتها جميعها، فإن الزمن الروائي أيضا «لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد، فالشخصيات التي تتأثر بمكان ما، فإنها لا تتأثر به إلا من خلال فعل الزمن في ذلك المكان»[8]. كما أن المكان و الزمن توأم.

2- جدلية الزمن والمكان في السرد

المكان و الزمن توأم لا ينفصل أحدهما عن الأخر مثلما تؤكد ذلك مختلف التصورات الفلسفية الحديثة و المعاصرة و بخاصة تصورات فيلسوف المكان و الزمان و الألوهية صامويل ألكسندر

و الفكرة الأصيلة في كل مذهب ألكسندر هي أن الحقيقة القصوى التي تتولد عنها سائر الأشياء هي: الحقيقة المكانية – الزمانية Space– Time و الحق أنه إذا كان في الإمكان التفرقة بين المكان و الزمان فما ذلك إلا بطريقة قبلية (Apriori) سابقة عن التجربة و أما الواقع العيني نفسه فإنما يشهد بأنه لا انفصال للمكان عن الزمن أو للزمن عن المكان[9]. و قد جمع هذا التصور بين هذين البعدين إلى الحد الذي أصبحا العماد الذي تقوم عليه جل

---

(7) أحمد حمد النعيمي: إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 25.

(8) المرجع نفسه، ص 78.

(9) ينظر: زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، ج1، د.ت، د.ط، ص 155

العلاقات التي ينتظم حولها الكون في التصورات الفلسفية و النظريات العلمية فـ«جميع أفعال الناس و انفعالاتهم –هي نفسها– لا تخرج عن كونها أنماطا معقدة من الأحداث المكانية و الزمانية»[10]. و نفسيا كما أوضح كولريدج ( )فإن فكرتنا عن الزمان تأتي «مختلطة دائما بفكرتنا عن المكان، فهذان البعدان متلاحمان في حقيقة الأمر لعدة أغراض عملية كما تدل على ذلك حقيقة أن كلمتي Présent و minite يمكن أن تشيرا إلى أي بعد من هذين البعدين، بالإضافة إلى أن الاستبطان يدل على أننا لا نستطيع أن نتصور أية لحظة معينة في الوجود دون أن نضعها ضمن سياقها المكاني أيضا»[11].

إن المكان هو القرية الضروري الملازم و المتمم للزمان و لا يمكن تصور أية لحظة من لحظات الحياة أو أية حالة من حالاتها دون إدراجها في سياقها الزماني و موضعتها في مجال مادي (مكاني) محدد.

يطلق باختين (Michail– Bactine) على العلاقة المتبادلة الجوهرية بين الزمان و المكان المستوعبة في الأدب استيعابا فنيا اسم كرونوتوي (Chronotope) أو الزمكان الذي يعني حرفيا الزمان المكان[12]. و يصف الشكل الذي يجمع معا الزمان و المكان بحيث يعرض باختين ثلاثة أشكال رئيسة للزمكانية في الرواية هي رواية المغامرة و رواية الحياة اليومية و أخيرا زمكانية السيرة الذاتية و التراجم[13]. و يذهب إلى أن «علاقات الزمان تتكشف

---

(10) زكريا إبراهيم: المرجع السابق، ص 159.

(11) إيان (واط): نشوء الرواية، تر عبد الكريم محفوظ، وزارة الثقافة دمشق، سوريا، د.ط، 1991، ص 29.

(12) ينظر: ميخائيل باختين: أشكال الزمان و المكان في الرواية، تر: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، د.ط، 1990، ص 05.

(13) ميجان الرويلى و سعد البازغي: دليل النقاد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، بيروت (لبنان)، ط5، 2007، ص 170.

في المكان، و المكان يدرك و يقاس بالزمان. هذا التقاطع بين الأنساق و هذا الامتزاج بين العلاقات هما اللذان يميزان الزمكان الفني»[14]. و إذا ما تجاوزنا الرؤى الفلسفية إلى الرؤى النقدية التي تتوجه للنصوص الأدبية فإننا«نجد علاقة المكان بالزمان علاقة تجسيد تختلف في النوعية لتتفق في الجوهر، من حيث احتواء المكان للزمان بما يفعل دور كليهما للكشف عن جماليات النص، ثم إبعاده السيكولوجية في منظومة التلقي ورؤيته النقدية»[15].

يجمع كثير من الباحثين في تحليلهم للنصوص الأدبية أن ليس ثمة فصل بين الزمكان و المكان لأن طبيعة هذه النصوص مهما اختلفت أجناسها إنما تعبر في مجملها عن أحداث ووقائع وأزمنة ضمن إطار مكاني والزمكان هو الذي يكسب المكان خصوصيته و خصائصه إلا انه عاجز تماما عن استكناه الوجود إلا إذا ارتبط بالمكان الذي تجري فيه أحداث الزمن و النص الأدبي هو واهب الزمن هذا الوجود من خلال طبيعته اللغوية، ذلك«أن اللغة في العمل الأدبي ليست مكانية فتتحدد لنا المساحات، و ليست كذلك زمانية فتتحدد لنا المسافات ولكنها زمانية مكانية في وقت معا وكان من المفروض في هذه الحالة أن تتمثل فيها الصورتان المكانية و الزمانية و هذا ما تحقق، و لكنه تحقق على نحو غريب ذلك أن الصورة المكانية تنطبق على الصورة الزمانية فيخيل للإنسان كأن أحدهما قد ذهبت بمعالم الأخرى و لكن الحقيقة أن الصورتين تتوازيان»[16] لتفرز الزمكان الذي لا يمكن له أن يوجد إلا باللغة و في

---

(14) باختين ميخائيل: المرجع السابق، ص 06.

(15) حافظ محمد جمال الدين: شعرية المكان و الزمان، علاقات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، مج13، عدد52، جوان 2004، ص 96.

(16) عز الدين (اسماعيل): الأسس الجمالية في النقد العربي (عرض و تفسير و مقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، 2000، ص 145.

اللغة، مما يمنح الفرصة لتشحينه بحمولة رمزية و دلالية مكثفة فيؤدي الدور الحقيقي المنوط به على طول المسار الروائي[17].

إن المكان و الزمان في الرواية عصبا لا يمكن تجاهله، أو التهوين من وجوده، و أهميته، و لذا فإن المكان عنصر زماني من عناصر الرواية و كذلك الزمن عنصر مكاني من عناصر الرواية[18].

تصل الأحداث في الرواية المكان بالزمن و تتشكل في إطارهما و الحدث يرتبط ديالكتيكيا بالأمكنة فـ «حيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة»[19]، لذلك يحرص الروائي على إعطاء كل لحظة و كل مشهد من مشاهد روايته إطارا مكانيا فهو أكثر تنبها إلى العلاقات التي توحد بين الشخوص التي يبدع و العالم الروائي الذي يحيط بهم لكي يتيح لنا أن نراهم رؤية جديدة[20]. قد تكون قريبة أو بعيدة من الواقع الفعلي، لكنها رؤية –لا محالة– تنسج بعض ملامحها من الحقيقة الزمانية و المكانية التي تنمو بنمو الخطاب الروائي بكل فعالياته.

إن معالجة ارتباط المكان (الروائي) بالزمن يجب أن تنطلق من«كون المكان مسرحا مختلف التفاعلات و الخبرات الإنسانية التي تضفي على المكان حضوره و هذا ما يذهب إليه (مارسيل بروست) في قوله نحن نجرب المكان بينما نعاني الزمن الذي يفرض نفسه علينا موضوعيا و يستمر بلا توقف حتى إذا لم نكن على وعي تام بمدته»[21]، أي أن سكونية

---

(17) خالد حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي للخراط أنموذجا)، المرجع السابق، ص 93.
(18) عبد الحميد المحادين: جدلية المكان و الزمان و الإنســـان في الرواية الخليجية، وزارة الإعلام و الثقافة و التراث الوطني، البحرين، ط1، 2001، ص 135.
(19) جرار جينيت و آخرون: الفضاء الروائي، المرجع السابق، ص 36.
(20) ينظر: المرجع السابق، ص ص 19. 20.
(21) طاهر عبد مسلم: عبقرية الصورة و المكان، المرجع السابق، ص 85.

المكان و ثباته لا يعني انقطاع الزمن عن التدفق لأنه و بمجرد أن يخترق المكان، فإن هذه الحركة تمظهر الزمان و تجعله محسوسا أي أنها تجعله تاريخا و كينونه لهذا فإنه بات من المستحيل الحديث عن زمكانية دون حركة تضفي عليها معان و دلالات فهي «نقطة توحد الزمان و المكان و هما يشكلان تلك الوحدة البنائية»[22]، و الأماكن لا يمكن أن تنتج دلالاتها الثقافية إلا إذا تم اخترقها و هي«دائما لها تاريخها سواء أكان ذلك بالنسبة للتاريخ العام أم بالنسبة لسيرة الشخص فكل انتقال في المدى يفرض تنظيما جديدا للمدى الزمني، و تغيرا في الذكريات و المشاريع(...) و قد يتفاوت هذا التغيير في العمق و الخطورة»[23]. فالأماكن بتعاريجها و التواءاتها «مسكونة بأنباض ألحقت التاريخية»[24]. و قد يتحول الزمن الروائي إلى بعد أخر للمكان يتخذ صفات مكانية«عندما يداخل الراوي بالقصد بين الزمن و المكان كأن يتحدد الزمن بالمكان و المكان بالزمن»[25]. و هذا ما يرصده الفيلسوف الظاهراتي "غاستون باشلار" في رؤيته الفلسفية القاضية بتلازم المكان و الزمن التي يؤكد فيها على«التوافق البطئ بين الأشياء و الأزمان، بين فعل المكان في الزمان ورد فعل الزمان على المكان»[26].

---

(22) ميجان الرويلي و سعد البازغي: دليل الناقد، المرجع السابق، ص 170.

(23) ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ترفريد انطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 104.

(24) مصطفى الكيلاني: الرواية و التأويل (سردية المعنى في الرواية العربية)، أزمنة للشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2009، ص 25.

(25) المرجع السابق، ص 26.

(26) صالح إبراهيم الفضاء و لغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص 09.

و ما أراد أن يبرزه باشلار هو: أن الزمان يؤثر على المكان فيحوله و أن المكان عبر هذه الآثار و التحولات الزمانية يدل على وتيرة الزمان. إن العلاقة بين كل من الزمن و المكان في الرواية أساسية و هامة و هناك دوما«زمكانية أساسية لكل رواية، أي فضاء زماني مكاني ينظم علاقة الماضي بالحاضر»[27] تسند فيه الرواية«دورا حقيقيا لمقولتي الزمن و الفضاء، مما يجعلها حاضرتين بمختلف تمظهراتها في كل موضع من الرواية»[28]. و إن كان هذا الاستدلال اللزومي المفضي إلى توحدهما لم يمنع الدارسين النقاد من أن يميزوا بينهما على سبيل التسيير الإجرائي و اهتم كثير منهم بمقولة الزمن فيما قدموه من أبحاث و دراسات تأتي في صدارتها أبحاث الشكلانيين الروس (Formalistes ruses) الذين نبهوا إلى مرونة الزمن التي تمنحه القدرة على أن يتشكل بأنواع مختلفة داخل الخطاب فقد لاحظوا أن التحريف الزمني سمة الخطاب الوحيدة المميزة له عن القصة[29]. و هذه الجهود استفاد منها البنيويون في الستينيات و اعتمدوا على ما قدمه توماشفسكي و منهم تودوروف (T.Todorov) الذي ميز بين زمن القصة و زمن الخطاب و ذهب إلى أن«زمن الخطاب هو بمعنى من المعاني زمن خطي، في حين أن زمن القصة هو زمن متعدد الأبعاد ففي القصة يمكن لأحداث كثيرة أن تجري في آن واحد لكن الخطاب ملزم بأن يرتبها ترتيبا متتاليا يأتي الواحد منها بعد الآخر»[30].

---

(27) أمنة رشيد: تشظي الزمن في الرواية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1998، ص 13.
(28) جرار جنيت، الفضاء الروائي، المرجع السابق، ص 19.
(29) توزفيتان تودورف: مقولات السرد الأدبي، طرائق تحليل السرد الأدبي، تر الحسين سحبان و فؤاد صفا، اتحاد الكتاب العرب، الرباط، المغرب، ط1، 1992، ص 55.
(30) المرجع السابق، ص نفسها.

و بلغت دراسة الزمن الروائي أوج تطورها على يد رواد الرواية الجديدة بفرنسا الذين دفعوا بعجلته نحو الحداثة و التجديد نذكر من بينهم آلن روب غرييه (Alain robe grilte) و ميشال بوتور (Michel butor) نظر كتاب الرواية الجديدة و نقادها إلى الخصائص التقليدية للزمن الروائي فعدوها ضربا من القيود التي من شأنها أن تعرقل عملية الإبداع منطلقين في ذلك من«إنكار التماثل بين الزمن الروائي و الزمن الواقعي، فلا زمن إلا زمن الحاضر، زمن الخطاب الروائي الذي يركز على حركة الأشياء»[31]. و جرى بنا أن نشير إلى أن الزمن الروائي يشبه المكان كونه عبارة على «مدلولات نصية تتوالى تباعا في الخطاب و تكون ذات طبيعة لفظية بحيث يكون التقاطها و كشف دلالتها من خلال الإشارات الزمنية المبثوثة في النص»[32].

يلتحم المكان و الزمن في الرواية فيتحول كل منهما مرآة للآخر، يدل عليه بل و يتلون به، و قد يتبادلان الدوار عندما يتجاوزان التأثير المتبادل بحيث يتحول المكان (المدرك الحسي) إلى زمان و يتحول الزمن إلى مكان و هذا ما تسمح به طبيعتها التخيلية.

---

(31) ينظر: سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص 69.
(32) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المرجع السابق، ص 195.